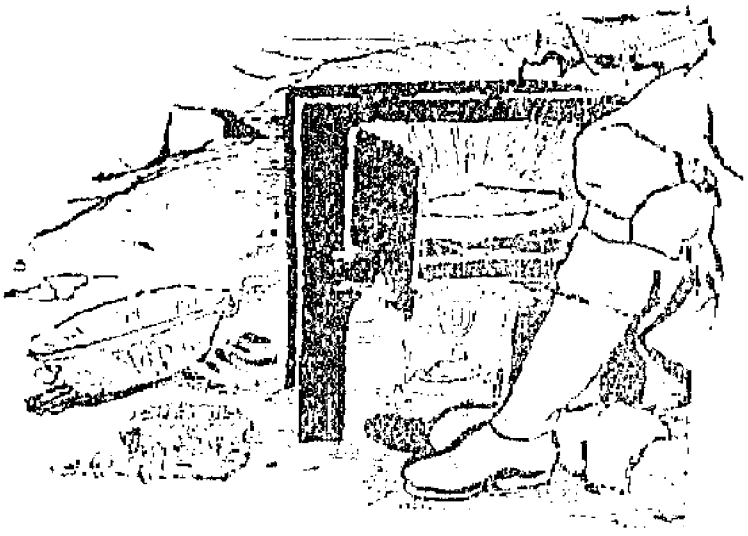

ودق المدفع وأقبل الضباط على خيمة الأكل وفوجئوا بالصينية تتوسط السفرة . . وجلست أنا والبارودى نفرك أيدينا وقد كسونا وجوهنا علامات التواضع وانكار الذات .

صينية قرع . .

أن هناك سؤالا أعيتنى إجابته كهذا السؤال ؟ .

رأظن ماذا يحدو صاحبنا « الضّوْ » إلى خلط الطعام بالجاز ؟ .

أربعة أشهر !!.. مائة وعشرون يوماً .. ونحن لانذوق لقمة واحدة . . قد خلت من الجاز .

أترى الخبيث له بالجاز ولع فهو يدسه فى طعامنا . . ليل نهار . . حتى يتمتع بما تبقى منا مغموراً بالجاز ؟ .

لا أظن . . فلو أن الأمر كذلك لكان خيراً له أن يحتفظ بكمية الجاز التى يخلط بها الطعام . . ليخلط بها البقايا فقط . فيستطيع بذلك أن ينعم فى طعامه بكمية من الجاز أوفر .

أترى الغبى حريص على صحتنا . . فهو يدس الجاز فى الطعام حتى يحصننا به ضد الأمراض . . ويجنبنا شر الأوبئة ؟

أم تراه قد مل عشرتنا ، فهو يجد فى الجاز خير وسيلة للتخلص منا والقضاء على حياتنا ؟

من يدرى ؟ كل هذا جائز ومحتمل فلا أظن أن هناك شيئاً مستبعداً على صاحبنا ، فهو إنسان غير مفهوم لاتستطيع أن تميز فيه ناحية الشر أو الخير ، فقد مزج فى نفسه خيره بشرّه وأضحى خليطاً معقداً لايستبينه المرء حتى بعد طول دراسة

فأنت تظلمه إذا ما قلت عنه شريراً ، وتظلم نفسك إذا ما ظننت به صلاحاً واطمأننت إليه .

ولكن ما ذا يجبرنا على التمسك بهذا الضّوْ ، وعلى الرضوخ لتناول طعامه المخلوط بالجاز ؟

قالوا ماذا يجبرك على السوء ، قلت ماهو أسوأ منه ، وهذا هو نفس ما كنانقوله لأنفسناوقتذاك ، فما أجبرنا على احتمال سوء الضّوْ ، إلا لأننا لم نجد ما هو خيرٌ منه

كان الضّوْ على حد قولهم ، يبيع فينا ويشترى ، وكنا إذ ذاك بالواحات البحرية حوالى عام ١٩٣٩ بإحدى كتائب آلاى السيارات الخفيفة وقد احتللنا الصحراء التى تشرف على الواحات من ناحية النقب رقم ١٣ وكانت معنا إذ ذاك بعض وحدات المدفعية والدبابات ، التى انتقلت إلى هناك عقب إعلان إيطاليا الحرب .

ولقد وقع اختيارنا عند الرحيل إلى الواحات على العسكرى الضّوْ ، أو على الحاج الضّوْ كما كان يسمى نفسه ، لكى يقوم بمهمة الطبخ لضباط الكتيبة .

أقول إن اختيارنا قد وقع عليه ، ولو أردت التعبير لقلت إننا أرغمنا على اختياره ، فما تقدم لنا أحد من عساكر

الكتيبة سواه ، عندما سألناهم عمن يجيد منهم عملية الطبخ .

وتقدم الضّو المذكور ، وأنبأنا فى «تقل» أنه كان يعمل طباخاً لأباظه باشا ، وعائلة أباظه مليئة بالباشوات ، وليس من باشا منهم إلا وعنده على الأقل طباخ ، ولم يكن من اليسير علينا أن نلف على الأباظية الباشوات لنسألهم واحداً واحداً عما إذا كان أحداً منهم قد استخدم طباخاً منذ بضع سنوات يدعى الحاج الضّو .

لم يكن هذا بالطبع أمراً يسيراً ، وعلى هذا اكتفينا بتصديق صاحبنا ، وقلنا فى أنفسنا أننا حتى لو حذفنا عامل المبالغة من قوله ، فلن يكون أقل من مرمطون عند أباظه باشا ، وفى هذه الحالة سيكون لديه ولو فكرة بسيطة عن الطعام ، ولا بد أنه سيتعلم الطبخ بمضى المدة .

وعلى هذا سلمنا له زمامنا من حيث الطعام ، وبدأ الضّو يجرى فينا تجاربه ، كأننا أرانب فى معمل .

وبعد بضع أكلات ، اتضح لنا أن الضّو هذا قد يكون حقاً اشتغل عند أباظه باشا ، ولكنه قطعاً لم يكن طباخاً ، ولا مرمطوناً ، ولا سفرجياً ، قد يكون اشتغل « سايس » ، سائقاً لسيارة ، سكرتيراً ، أى منصب ، عدا المناصب التى

لها صلة بالطعام ، اللهم إلا فى حالة واحدة ، وهى إضراب أباظه باشا عن الطعام .

وبمضى المدة ، وبطول المكث بين الحلل والكوانين ، حصل الضّوْ على بعض الدراية فى فن الطبخ ، أو قل إن بطوننا اخشوشنت واعتادت شظف العيش ، كما يعتاد الإنسان كل سوء يطول به ، وأضحينا أشبه بالحواة الذين يبلعون الزجاج والزلط .

أقول إننا اعتدنا سيئات هذا الضو ، وبدأنا نستسيغ طعامه إلا أمراً واحداً ، وهو إصراره على خلط الطعام بالجاز .

« ياسى ضَوْ حرام عليك كفايه جاز بقى » .

هذا هو الرجاء الذى كنا نسوقه إليه عقب كل أكلة . ولما وجدنا أن رجاءنا لم يلق منه أذنا مصغية ، حاولنا أن نسوقه إليه فى صورة أخف على نفسه فقلنا له :

« طيب بلاش تشيل الجاز خففه شويه » .

ولا هذا أيضاً .

« طيب ممكن تجيب الجاز فى سلطنيه لوحده ، واحنا نرشه هنا على الأكل ؟ » .

أبداً ، إنه لم يكن لديه أية ثقة فينا .

وفى ذات يوم أعلنا الثورة ورفعنا راية العصيان ، وكان أول من وضع بذورها ونادى بسقوط الضو ، هو أنور البارودى ، الذى جلس إلىّ عقب تناول إحدى الأكلات وقد أطرق برأسه وبدا عليه الوجوم والتفكير ، ثم رفع رأسه وقال فجأة :

— إسمع .

— نعم .

— ما الذى يجبرنا على الصبر على كل هذا الأذى واحتمال كل ذاك الضيم ؟

— ماذا تقصد ؟ .

— أقصد ما الذى يجعلنا نحتمل هذا الخنزير الذى سمم أجسادنا بالجاز والرمل .

— ومن الذى يطبخ لنا غيره ؟

— لا أحد ، نحن نطبخ ، هل تظن أن الطبخ عملية شاقة ؟ إنها أسهل مما تتصور ، إن الأمر لا يستلزم منا سوى شىء من الجرأة ، ما رأيك فى أن نطرده ، ونبدأ الطبخ من الغد ؟

وكنا فى رمضان والنهار أمامنا طويل ولا شىء يمنعنا من إجراء التجربة ، فلعلها ناجحة ولعلها تنقذنا من نير الضو .

وفى الصباح ، تحرك البارودى إلى خيمة المطبخ ، ونادى

على الضوء ، فخرج إليه صاحبنا بوجهه اللامع الممتلىء وقد علت وجهه ابتسامة الرضا وبدأه بالتحية قائلا بدون تكليف :

— صباح الخير يا فندم .

وأشار البارودى بأصبعه إلى حيث خيام العساكر وقال :

— على الأورطة .

ولم يكن الضوء قد ظن شراً إذ لم يخطر على باله قط أننا نستطيع أن نستغنى عنه فسأل البارودى ببساطة :

— حضرتك تريد شيئاً من الأورطة ؟ .

— أريدك أن تذهب إلى الأورطة ولا تريناوجهك أبداً

ولم يخف على الضوء أن هناك مؤامرة قد دبرت ضده فهز رأسه وأجاب :

— حاضر يافندم ، مفيش مانع أبداً .

وفى الساعة العاشرة أحضرت التعيينات وكانت تصرف للضباط وقتئذ نفس تعيينات الجنود ، وكان الخضار فى ذلك اليوم : قرعاً ، أو على الأصح قرعة ، فقد كان كل ما أحضر لنا فى خيمة المطبخ هى قرعة ، وحيدة ، ولا أشك أن أى قارىء — غير عسكرى — سيتساءل فى دهشة : « قرعة » واحدة لكل ضباط الأورطة ؟ .

ولست أشك أيضاً فى أن أى قارىء عسكرى ، من

أبصروا خضار الجيش المصرى ، سيتساءل فى دهشة كذلك « قرعة بأكملها لضباط أورطة ، لا ، لا ، هذه مبالغة ! »

والواقع أنها كانت . . قرعة وافية . . لا تقل بحال من الأحوال عن الشمامة . . الضخمة . . ونظر إلىّ البارودى ونظرت إليه (ولم يكن هناك غيرنا من يعلم بالمؤامرة التى دبرناها لطرد الضّوْ) . . ثم نظر كلانا إلى القرعة الشبيهة بالقتيل وتساءلنا فى نفس واحد : « ماذا سنفعل بها ؟ » .

وفكر البارودى برهة ثم قال ببساطة :

— نعملها صينية .

— صينية قرع ؟ .

— ولِمَ لا ، ألم تأكل فى حياتك صينية بطاطس ؟ .

— صينية بطاطس ، أى نعم أكلت ، ولكن صينية قرع ؟!

— وما الفرق بين البطاطس والقرع . . هل سترفض القرعة أن تعمل صينية ؟ .

ونظرت إلى القرعة السمينة ، ولم يبد لى أنها يمكن أن ترفض أى شىء فقلت له :

— لا . . لا أظنها سترفض .

— انتهينا .

ثم أمسك بالقرعة فى يده وقال :

ـ عليك التقشير ، وعلىّ التخريط .

ووجدت أنه سيبدأ فى « استكرادى » من أول الأمر فإن عملية التخريط أسهل مائة مرة من التقشير فقلت له :

ـ لا ، بل عليك أنت التقشير ، وأنا علىّ الباقى .

وفكر البارودى برهة ثم قال :

ـ اسمع سنحضر الضّو لتقشيرها ، ثم نطرده بعد ذلك .

وحضر الضّو فقام بتقشير القرعة ، وقد بدت عليه علامات الشهامة ، وعند ما انتهى من التقشير أشار له البارودى أن يعود من حيث أتى .

وبدأنا فى تخريط القرعة فى إحدى الصوانى ، ثم خرّطنا الطماطم فوقها ووضعنا فوق الخليط كمية لا بأس بها من البصل ثم حشرنا اللحمة فى جوف الخليط ، وصببنا فوق كل ذلك ما يقرب من رطلين من السمن .

وفرك صاحبى كفه وبدت عليه علامات الغبطة والارتياح ثم قال متفاخراً :

ـ ألم أقل لك ؟ هذه هى كل « الشغلانة » ، ليس هناك أبسط منها ولا أسهل .

وأشعلنا وابور الجاز ووضعناه أسفل الفرن الصاج الأسود الذى أحضرناه معنا من القاهرة لمثل هذه الطوارىء

وهممنا بوضع الصينية داخله ، ولكننا توقفنا فجأة وقلت لصاحبي :

ـ الملح ؟ لقد نسينا الملح ، وكدنا نشمت فينا الضوء .

ـ آه ، لقد ذكرتنا ، تصور أننا كنا على وشك أن نفسد الطبخة ـ كما يقولون ـ لأجل « شوية » ملح . أين الملح ؟

ـ لا أظن أن الملح وحده يكفي ، بل لا بد من التوابل الأخرى ، حتى تعطي الصينية طعماً ونكهة ، لا بد من الفلفل والكسبرة والكمون والبهارات ، ففي هذه الأشياء البسيطة سر الطبخ .

وألقينا نظرة على صف العلب المرصوصة فوق المنضدة وقال صاحبي :

ـ أظن أن هناك أصناف معينة من التوابل تلائم الصواني ، ويتحتم علينا أن نعرف بالضبط ماهي الأصناف التي تلائم القرع ، وإلا فسدت الصينية ، ثم لا تنس أنها لا توضع إلا بنسبة معينة وكميات محددة .

وبدت لنا مسألة وضع التوابل مشكلة عسيرة ، ولم نر خيراً من أن نرسل إلى الضوء نسأله ـ دون أن يحضر ـ عن أنواع وكميات التوابل التي توضع في صينية القرع .

وجاء المرسال يخبرنا أن الضوء الخبيث يقول :

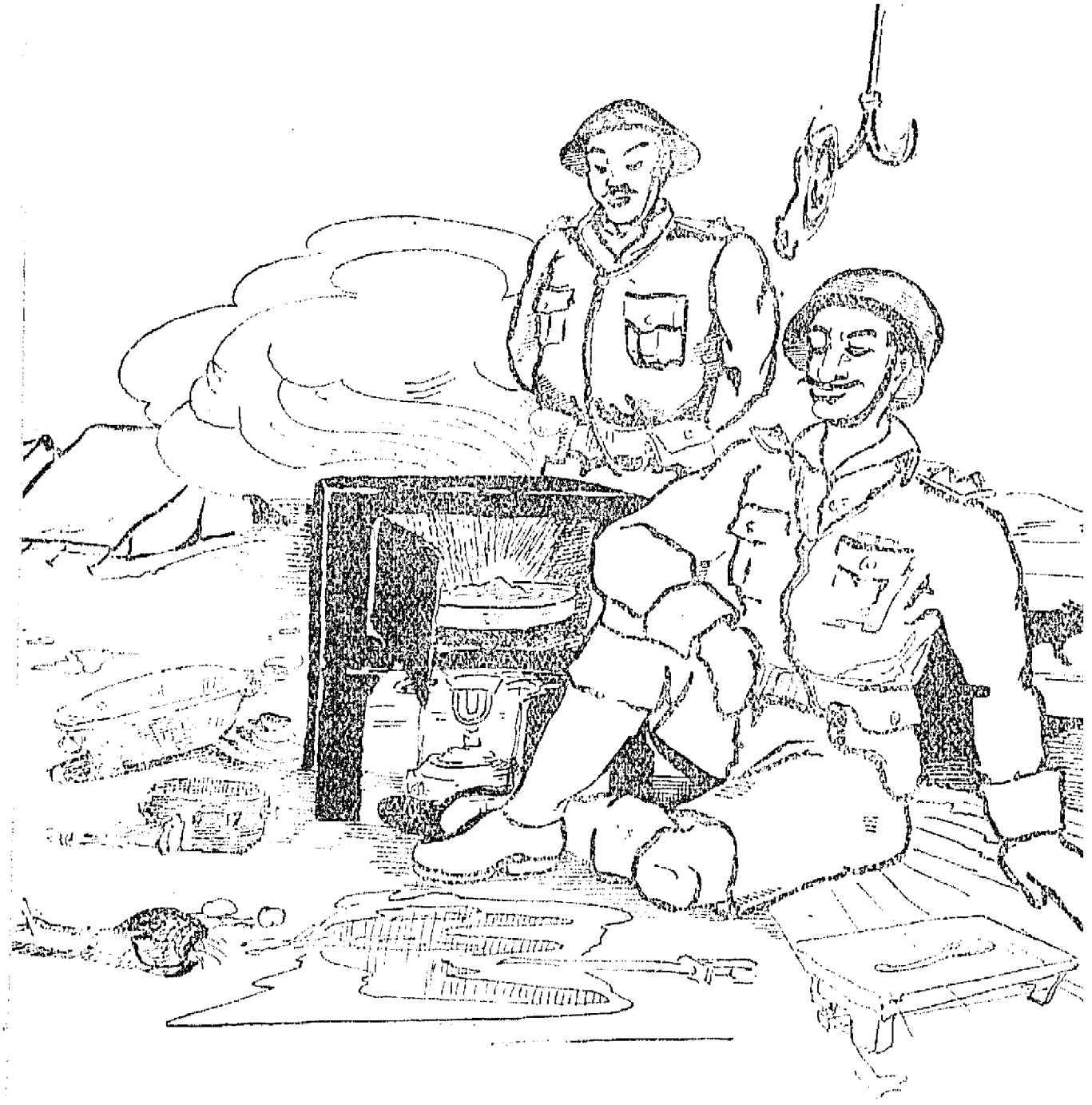

ـ العلب عندهم، يأخذون منها مايشاءون ، هى كيمياء؟

ونظر إلىّ البارودى وتقدم إلى العلب وعليه سيماء من نوى أمراً جللا وقال :

ـ دعك منه ، خليها بالبركة ، وربك يستر .

وبدأت التوابل تتدفق على الصينية بغير حساب ، هذه كسبرة ، وهذا كمون ، وهذه مستكة ، وهذا حبهان ، فلفل أسود ، فلفل أحمر ، كله خير ، كله بركه .

وأخيراً دخلت الصينية الفرن تتهادى باسم الله حافظها ومنضجها .

وجلسنا بجوار « المحروسة » ننتظر نضجها ، وبعد خمس دقائق فتح البارودى الفرن ليرى ما تم بها . . فوجدها بالطبع كما هى .

وأصابنا الملل ونحن جالسين أمام الفرن نفتحه كل دقيقة فنجد الصينية كما هى ، ونظر البارودى إلىّ وقال مستشيراً :

ـ ما رأيك فى أن نحضر الضّو ليجلس ـ فقط ـ أمام الصينية ؟ .

ـ فكرة طيبة بشرط أن يجلس على الحياد فلا يتدخل قط فى شئون الصينية .

وأحضرنا الضّو ، وذهبنا إلى خيمتنا وجلسنا نتسلى

بالقراءة ، وبعد نصف ساعة ذهبنا لنرى ماتم فى أمر الصينية وفتحنا الفرن ، ونظرنا إليها فإذا بها خضراء من غير سوء .

وهز صاحبى رأسه فى دهشة متسائلا :

— لماذا لا تستوى ؟ .

ثم نظر إلى الضّو فى غيظ وهمس إلىّ :

— يخيل إلىّ أن الخبيث يرفع الوابور من أسفل الصينية عندما نذهب ثم يضعه ثانية عندما يحس بنا .

ونظرت إلى الضّو الشامت الساخر وإلى الصينية الخضراء التى تأبى النضج وقلت له متشككا :

— جائز . . لا أستبعد على الخبيث أى منكر .

وعدنا إلى الخيمة وبعد نصف ساعة أخرى ذهبنا «نطل» على الصينية فإذا بها كما هى ، وأشار البارودى إلى خيام العساكر وقال للضو :

— إذهب ولا ترينى وجهك ، وإلا جنيت على نفسك .

وجلسنا أمام الصينية كأننا أسدا قصر النيل ، والوابور بجوارنا يئز ، والصينية ـ سامحها الله ـ لا تشعر ولا تتأثر .

وقرب ميعاد الأفطار ، والصينية لم يفارقها الاخضرار وأخيراً سلمنا أمرنا لله وأخرجناها فأدهشنا أنها استوت رغم أن لونها لم يتغير ، واعتبرنا الأمر حدثاً فى عالم الطبخ .

ودق المدفع وأقبل الضباط على خيمة الأكل ، وفوجئوا

بالصينية تتوسط السفرة ، وجلست أنا والبارودى نفرك أيدينا وقد كسونا وجوهنا علامات التواضع وإنكار الذات وقلنا ببساطة : « نحن الذين عملناها » .

ونظر إلينا (على مقلد) « قائد الكتيبة » بعد أن تذوق اللقمة الأولى ثم قال فى حسرة :

ـ والله عملتوها .

وذقنا الصينية وإذا بعنصر الجاز متوفر فيها كل التوفير .

وتبادلت أنا والبارودى النظرات . . نظرات الندم على أننا تركنا الضو ينفرد بالصينية .

ولكن هل ترى الضو حقاً ، قد انتهز فرصة خلوه بالصينية فصب عليها الجاز ؟ .

لا نظن فقد كان الضو مظلوماً . . ولم نكتشف أنه مظلوم ، إلا عندما فرغت صفيحة السمن ، وأحضرنا صفيحة جديدة ، فانقطع الجاز ، لقد كانت صفيحة السمن الأولى هى منبع الجاز فقد كان سمنها مخلوطاً به ! ! .

وعند ما كانوا يسألوننا بعد ذلك ما الذى يجبركم على احتمال سوء الضو ! ! كنا نجيب : ما هو أسوأ منه .

ولم يكن هناك أسوأ منه .. بل أسوأ من أى شىء على وجه الأرض سوى « صينية القرع » .